

التلميذة الخالدة

والتلميذة الخالدة هي مدام كورى التى قال عنها أينشتين: (إن مارى كورى، من بين جميع المشهورين هي وحدها التى لم يفسدها المجد)

ولدت في بولونيا لأسرة متواضعة ولكنها مثقفة وطنية. وكان من سوء الطالع سنة ١٨٧٢ أن يكون المرء لولونيا -من رعايا روسيا- وينتسب إلى تلك الطبقة الذكية المرهفة الأعصاب التى تتأجج الثورة في قلبها على المستعمر الذى عرفوا على يديه، الأصفاذ وثلوج سيبيريا المتجمدة. وتشرب كيان الطفلة هذه المشاعر فعندما فاجأ المفتش الروسى فصلها وبدأ يسأل اسئلته المستفزة عن تاريخ قومه اختارتها المدرسة، لتجابتها، فردت على الأسئلة وكيانها الصغير يتمزق حتى أنها، ما كاد يخرج من الفصل حتى أجهشت بالبكاء من شدة الضغط على أعصابها..

من فرط تأثرى بسيرة مدام كورى دخلت في الموضوع بإحساس يجذبني ونسيت البداية التقليدية وهي تقديم الكتاب أولا الذى نقله إلى العربية الاستاذ الصاوى محمد- هذا الكتاب كتبه عنها ابتها ايف كورى أقرب الناس إليها وأصدقهم وأعرفهم بها ومع هذا تقول إنها كانت تجهلها لأن العاملة الكبيرة، ظلت إلى النهاية عاجزة عن اتخاذ الموقف الذى يقترحه عليها المجد، أو الشكل الذى يقتضيه ذبوع الصيت، فلم تعرف الوقوف في المعارض، ولم تحسن المشى في المواكب! ولم تدر كيف تكون شهيرة.

تقول ايف كورى: (كانت أمى في السابعة والثلاثين عندما ولدت. ولما كبرت إلى حد أن عرفت حق المعرفة، كانت قد صارت امرأة مسنة، بلغت ذروة الشهرة، ومع ذلك فإن «العاملة المشهورة» هي التى أجهلها، ولعل ذلك راجع إلى أن فكرة علمها وشهرتها لم تكن تشغل بالها.. بيد أنه يخيل إلى أننى عشت دائما مع الطالبة الفقيرة، المسحورة بالأحلام، التى كانت تدعى «مانيا» أو ماريا سكلودوفسكى» قبل أن أجىء إلى الدنيا بزمان طويل).

طفولة بائسة محرومة عرفت الحرمان المبكر من الأم فثبتت لطيمة

عرفت، طفلة، في المدرسة التي يسيطر عليها المستعمر، بمناهجه ووسائله وأدواته الجامدة والحية أى مفتشيه، يسيطر بالصلافة والغطرسة والتسلط.

ثم شبت عن الطوق فدخلت سجن الحياة. كان أول عمل لها مربية عند أسرة محام.

(إننى لا أتمنى لألد أعدائى أن يعيش فى مثل هذا الجحيم! إنه بيت من بيوت أولئك الأغنياء حيث يتكلمون الفرنسية الركيكة حينما يكون عندهم ضيوف!... وحين لا يدفعون المطلوب منهم مدى ستة أشهر، وبينما هم يلغون بالنقود من النافذة، إذ يقترون أشد التقير فى غاز الاستصباح! ولديهم خمسة من الخدم! «فخفخة» كاذبة، هى نتيجة غباوة كثيفة.. وحيث يدور حديثهم على الخوض فى الأعراض بغير حساب.. لقد بدأت أعرف الجنس البشرى أحسن من ذى قبل، وتعلمت أن الأشخاص الذين تصفهم القصص والروايات كائون فعلا. وأنه يحسن البعد عن الذين أبطروهم الغنى، وأفسدهم الثراء).

ومع هذا عملت حين تركتهم، مربية مرة أخرى وفى إقليم بعيد! إن وفى كل جانب من جوانبها الأربعة دكة خشبية، وفى الوسط فراغ إذا جلس فيه المرء على كرسى يطوى يحمله معه، وهو ما كانت تفعله ماريا فقد كانت تنطوى فوق كرسيها وقد غطت ساقها، وتضم إليها صررها، وتمنى الفينة بعد الفينة بتعدادها.

أما فى المدينة وأى مدينة؟ باريس. تقول المؤلفة أنه لم يكن فى باريس يومئذ اوتوبوس، بل اميبوس، بثلاثة خيول ودورين! وكان الدور الثانى من الاميبوس - ويدعى «الامبزيال» وهو المعرض لكل الأدوات، والذي يسبب الدوار، هو الذى تسرع إليه مانبا لأنه كان أيضا الأرخص.

كانت هذه باريس سنة ١٨٩١ حين كانت القاهرة فى ذلك الوقت بل قبله بعدة قرون تبهر الرحالة من شرق وغرب.. ولأن الحديث عن باريس فأنا اكتفى بوصف الغربيين لها والفرنسيين خاصة. يقول جاستون فييت (على طول الطريق من الأسوار الشمالية للمدينة الفاطمية إلى حدود المدينة الجنوبية يصاحبنا نغم متناسق بخاتمة مهيبة حيث تسمع لنا لنشيد رفيع فخم، حين تواجه أسوار مسجد السلطان حسن، أعيننا، فى تحد قوى)

وأطرى القاهرة وأطنب المهندس الفرنسى Hector Horeau فى كتابه المطبوع ١٨٤١
Panorana Degypte et de Nubie

مجرد مقارنة لم أملك نفسي من تسجيلها في معرض الحديث.

إن الهوان الذي تجرعتة (مانيا) في طفولتها وصباها، انطوى يوم فتحت في باريس صفحة جديدة وغدت طالبة في السوربون.

إن العلم ثقة، وذاتية، وشخصية بل لعل رغبة التعويض عن الهوان القديم ضاعف من رغبة الاستعلاء عندها حتى كتب زوج شقيقتها إلى أبيها خطابا عن شخصيتها الجديدة. والخطاب مع تعبيره عن الظاهرة الجديدة لا يخلو من طرافة.

(كل شيء عندنا على ما يرام. الأنسة ماري تدأب في عملها وتكاد تقضى كل أوقاتها في السوربون، فلا نلتقى إلا عند طعام العشاء، إنها فتاة مستقلة جدا، وعلى الرغم من السلطات الرسمية التي خولتني إياها بوضعها تحت رعايتي، فهي لا تكتفى بعدم إظهار أى احترام لى أو أية طاعة فحسب، بل تسخر منى ومن سلطتى ونفوذى، حتى كأنهما فردتا حذاء مثقوب).

على أن الفتاة ما لبثت أن استقلت استقلالاً كاملاً يعيشها فاستأجرت غرفة سطح كغرف الخدم في عمارة متوسطة يأتيها النور من كوة مفتوحة في سقف البيت المنحدر فكانت ترى المساء من ذلك المربع الضيق المحدود فلا دفء ولا نور ولا ماء.

وزودت ماري هذا المسكن بكل ما تملك من سرير حديدي يطوى، والمرتبة التي حملتها من بولونيا! وموقد ومنضدة من خشب أبيض وكرسى مطبخ، وطشت غسيل، ومصباح غاز عليه أباجور من الورق ثمنه قرش.

وسطل كان عليها أن تملأه من الحنفية التي على السلم ووابور سبرتو بحجم طبق الفنجان ظل ثلاث سنوات متوالية يكفيها لطهو الطعام!

ولنا أن نتخيل الطعام الذي يمكن أن يطهى على نار سبرتو ثم نتخيل أن هذا الطعام يتكرر أعواما.

وكم تجمدت أصابعها وارتعش كتفها.. وكم اعترأها الدوار حتى تفقد الرشده.

وبهذا الضعف الجسدى كله... ظلت تتبع دروس الرياضيات والفيزيكا، والكيمياء حتى كانت الأولى فى (ليسانس الطبيعة) فى سنة ١٨٩٣ وكانت الثانية فى (ليسانس الرياضيات) ١٨٨٤ وكان (ليسانس) واحدا لا يكفى.

تقول ابتها ايف كورى: (ربما لم تفضل «التلميذة الخالدة» فى بقية حياتها، أياما، مهما كانت مجيدة أو سعيدة على أيام البؤس والعناء فى الحى اللاتينى وسط الحرمان والنيران تحلم بأن تصبر الرفيق المتواضع لكبار العلماء فى الماضى، العاكفين مثلها فى صوامعهم الضئيلة النور، وقد انتزعوا أنفسهم مثلها من الزمان، غيورين مثلها على عقولهم يحملونها إلى ما وراء علوم البشر المعروفة.

وكافأته السماء فجعلت فؤادا رحيمًا من الناس يهوى إليها وظل الشاعر والعالم فى شخص بير كورى، كلاهما يحرص على التقرب من الفتاة البولونية.

إن الفتاة التى صدمتها أسرة مخدومها الأول لهوانها عليهم، يتلهف عليها الآن، أستاذ فرنسى عالم، موفور.

وفى يوليو سنة ١٨٩٥ كتبت مارى إلى صديقتها كازيا، رفيقة المدرسة :

(عندما تصلك هذه الرسالة، تكون صديقتك مانيا قد غيرت اسمها. فسأقترن بالرجل الذى حدثتك عنه... وعندما تتسلمين هذه الرسالة اكتبى إلى «مدام كورى، مدرسة الطبيعة والكيمياء، ٤٢ شارع لومون» فهكذا سأدعى من الآن فصاعدا).

وأخيرا كما تقول ابتها، استيقظت ماريا، لآخر مرة فى مسكن شارع شاتودان، وكان يوما صحوا جميلا. وكان وجه الفتاة رائع الحسن وقد تضوع فيه وازدهر شىء لا عهد به لدى رفيقاتها فى الدرس اليوم تصبح مدموازيل سكلودوفسكى: مدام بير كورى.

زينت شعرها البديع، ووضعت ثوب العرس، وكان هدية من والدتها كازيمير دلوسكى وكانت مارى قد قالت لها: (إننى لا أملك ثوبا آخر غير الذى ألبسه كل يوم.. فإذا تعطفت بإعطائى ثوبا، فأنى أريده قاتم اللون، نافعا بحيث أستطيع بعد ذلك أن أرتديه وأذهب به إلى المعمل) ففصلت

لها خياطة متواضعة ثوبا من الصوف الأزرق القاتم، مع بلوزة أزرق فاتح، بدت فيه ماري فتانة ناضرة فتية.

وكانت ماري راضية بهذا الزواج الذي يختلف في تفاصيله عن كل زواج.. فلا ثوب أبيض، ولا خاتم من ذهب، ولا مأدبة عرس، ولا حفلة كنسية.. لا شيء إلا التسجيل المدني، ثم ركوب دراجتين لامعتين، اشترياهما بالأمس من هدية نقدية أرسلها أحد أبناء العم.

ودنا والدها من والد العريس وقال له بصوت خفيض متهدج شديد التأثير: (سيكون لك في ماري بنت جديرة بالمحبة.. فهي منذ مولدها، لم تسب لى قط ألما).

وهاذنتها الأيام وعرفت أجمل الروابط التي يمكن أن تربط دائما رجلا بامرأة.

ما أجمل أن يكون الزوجان صديقين وخليلين وعاشقين وعالمين في وقت واحد.

مضت مدام كورى في البحث وراء المادة المجهولة وقد تابع بير باهتمام وشغف، نجاح زوجته السريع فى تجاربها. ثم قرر أن يدع مؤقتا دراسته فى البلور وأن يضم جهوده إلى جهود ماري للقبض على المادة الجديدة المعجبة.

لقد تضاعفت الان قوة النضال. ففى ذلك «الأتليه» الرطب بشارع لومون، عقلان وأربع أيد تبحث عن الجسم المجهول.. ومن الآن نقرأ فى رسائلهما إلى الأكاديمية الموقعة منهما معا: (واحد منا رأى وواحد منا أثبت ونحن نقترح أن تسمى مادة كذا «بولونيوم» نسبة إلى مسقط رأس أحدنا).

انها هنا الزوجة المحبة ورفيقة العلم والبحث.

وهى فى البيت الأم التى تكتب إلى أختها عن ابنتها: (لقد ظهرت سن ايرين السابعة، فى فكها الأسفل، إلى اليسار. وهى تقف نصف دقيقة وحدها.. ومنذ ثلاثة أيام ونحن نحميمها فى النهر. وهى تبكى وتصيح.. ولكنها اليوم (فى حمامها الرابع) قد كفت عن النحيب وضرب فى الماء بيديها. وهى تلعب مع القط، وتجرب من خلفه صائحة صيحات الحرب.. ولم تعد تخاف الغرباء وهى تغنى كثيرا وتصعد على المنضدة من فوق كرسيها).

كان هذا في ١٥/٨/١٨٩٨ وبعد ثلاثة أشهر، دنت ماري في ١٧/١٠ بفرحة:

(ايرين تمشى جيداً.. ولم تعد تمشى على أربع).

وفي ٥ يناير سنة ١٨٩٩ (ايرين لها خمسة عشر سنة).

ورسالة أخرى عن المربي التي صنعتها بيديها.

أما رسالة ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ بأكاديمية العلوم فتقول:

(إن الأسباب المختلفة التي سبق أن عددناها هنا، تحملنا على الظن بأن المادة الجديدة للنشاط الإشعاعي تحوى عنصراً جديداً، نقترح أن يطلق عليه اسم: «الراديوم».

أليست رائعة هذه السيدة؟

في ١٩٠٠ انهالت من إنجلترا وألمانيا والنمسا والدانمارك الرسائل والاستعلامات الموقع عليها من أعظم أساطين العلم وفطاحله على عنوان شارع لومون.

وهنا ليت الزمان يتوقف لحظة صمت ليستمع مرة أخرى إلى حديث نبيل نقي صاف صفاء الخير إذ يقول بير كورى لزوجته في صبيحة أحد في بيتها الصغير بشارع كلرمان:

* هذا الكنز النفيس الذي لا نزاع في تأثيره وانتشاره وسلطانه نحن الآن بإزاء حلين.. فإما أن ننشر، دون قيد ولا شرط نتائج بحوثنا، بما في ذلك طريقة تنقية الراديوم.. وإما أن نعد أنفسنا كأصحابه باعتبارنا «مخترعي الراديوم» وهنا نسجل فنية الابتكار لنحفظ لأنفسنا حقوق صنع الراديوم في العالم بأسره.

ففكرت ماري بضع لحظات، ثم قالت:

* هذا مستحيل. إنه يكون مخالفاً للروح العلمي.

وحاول الزوج أن ينبهها إلى حياتهما العسيرة الشاقة وأن لهما طفلة وقد يرزقان أولاداً غيرها. وجاء الرد مرة أخرى:

* الراديوم سيستخدم في مصلحة المرضى فيبدو لي محالاً أن نكسب من وراء هذا.

وفي هدوء قال الزوج: (سأكتب إذن هذا المساء إلى المهندسين الأمريكيين بكل التفاصيل التي يطلبونها).

بعد ربع ساعة من ذلك الحديث القصير والخطير، ركبا بيير ومارى دراجتيهما العتيديتين
وانجبا نحو غابات كلامار Clamart وهما أفقر الفقراء وأغنى الأغنياء فى وقت واحد.
وفى المساء عادا بجيوب خاوية وأذرع حالية محملة بزهور البرية وطاقات المروج.

قصة تهدى لتجار الحروب وسارقى الشعوب ومخترعى القنابل الذرية والراءوس النووية لأن
راءوسهم محروبة وضماثرهم منخوبة، وجلودهم يسكنها شيطان يحمل وجه إنسان.